الهُوية والمرأة في أدب آسيا جبار

تفكيك النسق وكسر المحظور

أ.بولفعة خليفة،
جامعة محمد الصديق بن يحي-جيجل(الجزائر)
د. بوداود وذناني،
عمار ثليجي، جامعة الأغواط (الجزائر)

Abstract

Assia Djebar treats with permanent care issues regarding the written and identity . .developped the dichotomy of french language with spoken word of mother tongue .She treats also the language of the veiled body whose voice escapes captivity, wearing a profound link between the written word and women,the voice and the body. Howwever, reviving the silent voices of the ancestors and father's law, she fights for spoken-word as a symbol of her identity,in order to make from it a site of femal resistance against masculin power.She attempts to consider the image of women when Muslim historians,and accuses them not objective in this case.

Keywords : Identity. Voice.Body.written Word. spoken-word, veiled-body. masculin *power*..

Résumé

Assia Djebar montre un souci permanent pour la question d'écriture et d'oralité et leur identité :Elle affronte la langue française à l'arabe maternelle orale. Elle explore la langue du corps voilé, faisant un lien profond entre l'écriture et la femme ,la voix et le corps, sans oublier la voix muette des ancêtres .Elle considère l'oralité comme espace féminin de résistance au pouvoir masculin. Elle dénonce aussi l'image de la femme musulmane rapporté par les historien islamique en les accusant d'être non objectifs.

Mots-clés : Identité. Voix du corps. écriture. Oralité. Corps voilé..pouvoir masculin.

ملخص:

تعمل آسيا جبار باستمرار على إثارة موضوعات مهمة في أدبها في ما يخص الكتابة والهوية. ظهرت في كتابتها في ثنائيات عدة ، مثل لغة الكتابة، اللغة الأجنبية، واللغة الشفاهية، لغة الأم، الجسد والحجاب. ركزت على أهمية العلاقة بين الكتابة والمرأة، الصوت والجسد، صوت الأجداد والوصاية الأبوية، واوهو ما جعلها تعتبر اللغة الشفوية رمزا للتعبير عن هويتها ، و قلعة تحتمي بها ضد المجتمع الذكوري. كما حاولت في كتابتها، بصفة خاصة،إعادة النظر في صورة المرأة كما أوردها المؤرخون المسلمون، متهمة إياهم بعدم الموضوعية في هذه القضية.

تمهيد

تكاد تكون الأديبة الجزائرية آسيا جبار مجهولة في وطنها أو غير معروفة بصورة كافية في وطنها بصفة عامة، وعند كثير من قراء لغة الضاد بصفة خاصة، بالرغم من حضورها اللافت في المشهد الإبداعي العالمي، وحصولها على جوائز عالمية مرموقة ، وشغلها المقعد الخامس في مجمع الخالدين بالأكاديمية الفرنسية.

ومن هذا المنظور ارتأينا أن نقدم هذه الورقة للتعريف بكتابتها الروائية، مبرزين أهم سماتها الإبداعية، على مستوى تطور الخطاب والتشكيل والرؤية والتبئير، ومدى استفادتها من الأعمال الروائية العالمية والنقد الحديث ومقولاته الكبرى، وقدرتها على استلهام واقع المجتمع الجزائري وتاريخه. وهو الأمر الذي جعلها تصدر عن خصوصية إبداعية محلية و هُوية وطنية أصيلة.

جعلت آسيا جبار من إشكاليات اللغة والمرأة ولغة الجسد تيمات أساسية للتعبير عن الهُوية في أدبها، فتشكلت لديها ثنائيات عدة تؤسس منظومتها الإبداعية والسردية: اللغة /الهوية، المرأة /الكتابة، اللغة /الجسد، الكتابة /الحرية، لغة الأم /اللغة الأجنبية، الكتابة /الشفاهية. نددت من خلالها بالسلطة الأبوية والمجتمع الذكوري المهيمن، الخانق لصوت المرأة وروحها، حسب توصيفها. وعبر هذا التوجه الجريء، تمكنت من التخلص من النسق التقليدي المعتمد على النقل الفج للواقع، والتحرر من الأعراف التقليدية الناتجة عن عمليتي النقل والتثاقف، لتصل إلى مرحلة من التأسيس والتأصيل، معتمدة على إعادة النظر في مقولات التاريخ الجزائري والإسلامي حول المرأة وصورتها ودورها في صناعة التاريخ. ثم جاءت كتابتها باللغة الأجنبية عاملا مساعدا للانفتاح على الحداثة الغربية في أصولها، وهو ما جعلها تخلق فضاء للكتابة والبوح وكسر المحظور وتفكيك الأنساق، وملأ الفراغات ومساحات الصمت المتروكة. وذلك لأن الكتابة بالنسبة للمرأة الجزائرية، حسب رؤيتها، تصطدم بعدة حواجز اجتماعية وثقافية ودينية داخل مجتمع ذكوري متحكم، لا يمكن التعبير عنها إلا بهذه الأداة. وهذا ما دفعها إلى ترويض هذه اللغة وصبغها بصبغة أقرب للمحلية منها للباريسية، فعبرت بها عن قضايا إنسانية وحضارية، بعد أن ظل النقد الفرنسي يعتبر الكتابة الفرانكفونية في الدول المستعمرة مجرد كتابة وثائقية محصورة في مجال الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية.

الرؤية وإستراتيجية السرد

تقوم إستراتيجية آسيا جبار الإبداعية على تهجين النصوص وإلغاء الحدود بين الأجناس الأدبية، والجمع بين الجانب الشفوي الممجد لتراث الأسلاف، والكتابي المتمثل في لغة الثقافة والحداثة الأوربية، وتجاوز العلاقة التقليدية بين المعرفة والرقابة بمظاهرها المختلفة، والابتعاد عن اللغة الفاشية للوصول إلى الأدب الحقيقي حسب توصيف رولان بارط Roland Barthe [1]: أي اللغة الإقصائية التي تقمع التعبير الحر عن الحياة والروح والمعتقد والجسد. وباختيار اللغة الأجنبية في كتابتها الإبداعية، ترى آسيا جبار أنها تمكنت من إنتاج خطاب أدبي بعيد عن كل رقابة، وهو ما انعكس على نصوصها الأدبية فبدت في صورة فسيفساء متنوعة من اللغات والأصوات واللهجات المحلية : العربية، العامية، والأمازيغية، طبقا لرؤيتها الخاصة المتمثلة في ثراء الهوية الجزائرية وتنوعها.

وأول ما يميز أعمالها الأدبية، منذ البداية، الانفتاح على الثقافة الغربية، واستلهام واقع المجتمع الجزائري وتراثه، حسب تطور مراحله. تمكنت في البداية[2]من رسم ملامح جيل ملتزم بالقضية الوطنية المتمثلة في استقلال الوطن؛ حيث أولت أهمية خاصة للمرأة ودورها في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الجزائر. وهذا ما جسدته بطلة روايتها نفيسة، الفتاة الجامعية المناضلة الملتزمة بتحرير الوطن، المتفتحة على العصر، والمرتبطة بعادات مجتمعها الأصيلة. استطاعت أن تكشف عبر هذه الشخصية، عن بعض الأبعاد المغيبة في حياة المرأة بسبب الحظر الاجتماعي، مثل التعبير عن الجسد والبوح بـ مكنونات "الأنا" المغيبة والعلاقات العاطفية. ويمكن إيجاز أهم ما ميز أعمالها السردية

في هذه المرحلة، بنية التعدد الصوتي واللغوي، وتنويع مستويات السرد والكتابة، والتقاطع بين حكايات الماضي والحاضر، وتوظيف الأصوات المتبادلة المرتبطة باللحظات الراهنة وكلام الأسلاف. وهي الإستراتيجية التي دأبت فيما بعد على مواصلتها في أعمالها اللاحقة، مما منح كتابتها السردية ثراء خاصا.

بعد ذلك[3] واصلت التأكيد على أهمية تحرر المرأة، منتهجة توجها جديدا يتمثل في التركيز على الجانب اللغوي الشفهي المرتبط بلغة لأسلاف، وهو ما يتجسد في الجانب العاطفي الذي تفتقد إليه لغة كتابتها الإبداعية. ولذلك ترى في هذا البعد ضرورة قصوى للتعبير عن روح المرأة الجزائرية وعواطفها وهويتها التي عجزت اللغة الأجنبية في التعبير عنها، وهذا ما يفسر بروز ثنائية : الكتابة/ الشفاهية Écriture/ Oralité.

كما حاولت[4] بعد ذلك إثراء الذاكرة الفردية بسبر الذاكرة الجماعية، فأظهرت اهتماما كبيرا بالتراث المحلي والذاكرة الشعبية – ذاكرة الأسلاف– التي تعتبرها أداة حاسمة في نقل التراث الشفوي وربط الحاضر بالماضي. وهنا برزت تأملاتها البارعة من خلال لغتها الخاصة وعلاقتها بالكتابة الإبداعية، وهو ما يعرف عندها بثنائيات المرأة /الكتابة، الكتابة/ الجسد ، الصوت /الجسد.

بينما وظفت تقنية التعدد الصوتي[5] لإظهار يوميات النساء المتنوعة داخل المجتمع الجزائري. بإسناد أفعال الحكي لديهن للتعبير عن يومياتهن، موظفة مستويات متعددة من الخرق في إستراتيجيتها السردية والحكائية: تقنية المزج بين زمن الحكاية وزمن الحاضر، وتوظيف مستويات سردية مختلفة، بالموازاة مع مستوى سرد الحكاية الرئيسية، نتيجة تأثرها بتقنية الإخراج السينمائي، حيث تعمل على تقطيع تسلسل الحكي وخطية السرد ، مما يجعل ماضي الأسلاف يتقاطع مع حاضر المجتمع الراهن.

تجليات الهُوية في أدب آسيا جبار.

يعتبر استيعاب الموروث الحضاري واستلهامه، وتمثله، وإعادة إنتاجه وفق السنن الثقافي والحضاري في الخطاب الروائي عند آسيا جبار، السمة المميزة لتجليات الهُوية، خاصة عند قيامها بالـ "حفر" في الذاكرة الجماعية و"سبرها" بحثا عن هُوية متعددة في امتدادات الأصول المحددة للمكونات الأساسية للانتماء والهُوية. إذ يتم التركيز على إدراك معالم واضحة فيها لتجاوز ما تراه استلابا ثقافيا. وهو ما جعلها تسعى دوما إلى الجمع بين الجانب التأصيلي والجانب الإبداعي، من خلال إعادة قراءة التاريخ قراءة تفكيكية.

وبالرغم من بعض تصريحات آسيا جبار المثيرة للجدل في الصحف حول الهُوية واللغة العربية خاصة في حوارها مع "البيان الإماراتية":" اللغة البربرية في المغرب لها حضور أكثر قدما من اللغة العربية، لأنها دخلت مع القرآن والإسلام إلى مناطق البربر الجبلية، إذ لا تزال منطقة القبائل الكبيرة لا تتكلم إلا باللغة البربرية فقط"[6].

وهو ما جعلها تعترف في نفس السياق بأنها حاولت في البداية الكتابة باللغة العربية، ولكنها عدلت عن ذلك لأنها وجدت اللغة العربية لغة جامدة أو شبه ميتة[7] مما يجعل البعض يعتبرها أمازيغية أكثر منها جزائرية بسبب هذه النظرة الإقصائية. وهي وجهة نظر تختلف تماما عما توحي بها أعمالها الإبداعية. فهي لا تنكر هويتها المتعددة، إذ تعتبر اللغة العربية بعدا مهما في تحديد هويتها الثقافية، إضافة إلى الأمازيغية أو العامية لغة الأم: حقيقة المرأة الأولى تتمثل في صوتها، إذ أن الصوت لا ينفصم عن روح المرأة الجزائرية، لأنها تتوفر على أربع لغات للتعبير عن رغبتها: اللغة الفرنسية للكتابة المحظورة، اللغة العربية للصلاة والدعاء، واللغة الأمازيغية[8]للتواصل مع الأمهات والجدات، ولغة رابعة هي لغة الجسد[9] التي تمكن الجسد من التخلص من الحظر والاحتجاب.

ثنائية الكتابة والجسد

تبدو ثنائية الكتابة والجسد، الكتابة والمرأة، عند آسيا جبار ذات علاقة وثيقة بأعمالها الإبداعية، ووسيلة للتعبير عن الهُوية: الكتابة هي الصوت الأمثل للكشف عن روح المرأة والتعبير عن جسدها، ففيها تتملى نفسها عبر خطوطها ومنحنياتها، أكثر من أي صوت آخر[10]وهذا يعني أن الكتابة الإبداعية بالنسبة لآسيا جبار مرآة ترى فيها الأنثى حقيقتها المغيبة التي تقمعها الوصاية الاجتماعية والذكورية.

وللغة التعبير عن الحب والعواطف شأن آخر عند آسيا جبار، بحيث أن اللغة الفرنسية التي منحتها الكثير من الكنوز، ومكنتها من التحرر الثقافي والاجتماعي، وأخرجتها من دائرة الحريم، أصابتها بلوثة سببت لها عقما عاطفيا أسمته "الحُبْسة العاطفية"«L' aphasie amoureuse» . وهي حالة يصاب بها الإنسان المعبر عن مشاعره العاطفية بغير لغة الأم، فتتحول إلى ما يشبه حُبْسة اللسان عند من يعانون صعوبة النطق. و بذلك تقر على لسان راويتها بعجز هذه اللغة في الكشف عن جوهر مكنوناتها العاطفية، وتعترف : أنها منذ زمن طويل، لم تستطع التفوه ولو بكلمة عاطفية واحدة باللغة الفرنسية، وهو ما انعكس سلبا على قواها الغريزية الأنثوية المتحفزة، وجعلها تفشل في إثارة عواطف الطرف الآخر، حتى في ذروة توهج أحلامها المراهقة. ولازمتها هذه العقدة التي ظلت تقاومها دون جدوى: استطاعت اللغة الفرنسية أن تمنحني كل كنوزها الثمينة، ولكنها فشلت أن تمنحني كلمة حب واحدة تعبر عن قلقي العاطفي.... وانتابتني بسبب ذلك حالة من التوحد كتمت تحفزاتي الأنثوية، وأحدثت في أعماقي صدمات مدوية[11].

وهذا ما جعلها تشعر بهذا الفراغ الرهيب في داخلها، فراغ ناتج عن افتقار أداتها التعبيرية للغة الأم. وتندب حظها في عدم تمكنها من لغة الأم الضائعة (...) ما هي لغتي المفقودة التي تركتني على الرصيف وانفلتت...وحلت مكانها اللغة الفرنسية... التي أزاحتها ووصفتها بالأم الشرسة[12]فأصبحت مثل اليتيمة التي فقدت الدفء العائلي: "وجدت نفسي محرومة من أغاني الحب العربية، وهو حرمان جعلني أشعر بالحنين إلى هذه اللغة التي لم أتمكن من إتقانها بالرغم من قراءي للقرآن في صباي. وزاد من صعوبة ذلك، إقصاؤها من اللغة الشفوية، لغة الطفولة والأمومة والمشاعر والحب"[13].

وكان لهذا الحرمان أثره البارز في أعمالها الإبداعية فبرزت لديها ثنائية الشفهي والكتابي، وهي ظاهرة تعكس مرجعيتها الإبداعية. إذ يتمثل الجانب العاطفي في لغة الأم، والجانب الثقافي في اللغة الأجنبية. وانعكست هذه الظاهرة في طريقة كتابتها،خاصة عند ممارستها التلاعب بالكلمات التي تذكرنا بجانب مهم في إيقاعية اللغة العربية وتقابلاتها الصوتية والدلالية، حيث تتميز بالتشابه الصوتي والاختلاف الدلالي :

l'amour ses cris" s'écrit"/ Algérie amère/que j'écris/ je crie [14].

ومن هنا ترى أن الكتابة بغير لغة الأم، تجعل الكاتب يشعر بأنه يعيش في المنفى.

الكتابة باللغة الأجنبية قناع وكسر للمحظور

ممارسة اللغة بهذه الطريقة تؤدي إلى نوع من الكشف. بل نوع من التعري، فهي بمثابة قناع يسمح لها بخلق مسافة تتقي من خلالها سطوة المجتمع الذكوري لتتمكن من الكشف والبوح، وتكسير الطابوهات والتعبير عن المحظورات، وتوظيف لغة الجسد لكشف المستور[15].

ولذا فإن الهُوية الحقيقة لآسيا جبار، يجب أن تلتمس في كتابتها الإبداعية، وليس في الندوات والحوارات الصحفية التي تكون فيها إجابات المبدع، أحيانا، مجرد ردود فعل حول أسئلة مستفزة أو ظروف عابرة.

وبالتالي فهي تعمل على نبذ التوجه الإقصائي المعبر عنه بـ"الهُوية القاتلة" بفعل التشكيك المرضي الذي تغذيه النعرة الإثنية، أو التوجه الإيديولوجي الشوفيني، القائم على الإقصاء والتهميش، وليس على حقائق تاريخية يجب التعامل

معها باعتبارها إرث إنساني يعتمد على الحوار الحضاري الثقافي بعيدا عن الغوغائيـــة والديماغوجيـــة والمنظومـــات المرجعية والإيديولوجية الضيقة والتشويه.

والهُوية، عند آسيا جبار ، ليست في حقيقتها إلا انتماء لمتعدد ضمن مجموع من الانتماءات التي لا يمكن الاكتفاء بواحد منها، حسب ما تذهب المقاربات الحديثة في هذا الميدان...وهي هوية يمكن إدراكها كمجموع لكل انتماءاتنا[16].أي أن الشعور بالانتماء لا يعني العصبية ولا القبلية ولا الهُوية القاتلة أو المنغلقة [17]بل يعني الانفتاح، لأن الانتمـــاء إلـــى الجزء لا يعني الانفصال عن الكل.

ولذلك يعتبر أمين معلوف[18] "الهُوية" من الكلمات المضللة، لأنها من الكلمات الأكثر شفافية والأكثـــر خيانـــة، باعتبار أن الإنسان في أوقات كثيرة ،يستعيض عن الحرية بعنصر ما من الهوية، ويجعل هذا العنصر سواء كان دينيـــا أو قوميا، يختصر أو يختزل كل الهوية، بينما الهوية مركبة من عدة عناصر. ولذلك يميز في كتابه "هُويات قاتلة" بـــين الهوية والانتماء. فيستخدم الهوية بالمفرد والانتماء بالجمع. ومن هنا فإن هناك انتماءات عديدة، ولكن ليست لهـــا نفـــس الأهمية.لأن الانتماء الذي اعتبره مهما في مرحلة معينة قد يصبح أقل أهمية بعد مرحلة تالية، وهذا مـــا يلاحـــظ فـــي الانتماء الاجتماعي والطائفي، الذي يتقلب حسب قناعات الأفراد، فيبدلون قناعاتهم حسب انتماءاتهم المختلفة[19]وهذا ما يعبر عنه بجدلية الثابت والمتحول، التي تؤكد مفهوم الهوية المتنوعة.

وبنفس المنظور، ومن زاوية مختلفة، يصدر الأديب الليبي إبراهيم الكوني[20]، في تعبيره عن الهوية، باعتبارها أبعادا متنوعة خاضعة لجدلية الثابت والتحول، إذ بالرغم من مناداته بالاعتراف بثقافة الطوارق ولغتهم وحضارتهم ، لا يرى غضاضة في الكتابة باللغة العربية، بل يعتبرها امتدادا خصبا لهويته المتعددة في إطار ما يسميه بالعروبة الثقافية، وهو البعد المكمل للثقافة المغاربية، أي جزء من كل، ولا يمكن للجزء أن ينفصل عن الكل:

"أردت أن أقول إننا يجب أن نتعلم الاعتزاز بهويتنا **الأثرى لا الأفقر** ! يجب أن نتعلم أن نفخر **بتعددنا** لأن التعدد ضمان وجودنا في البعدين الأفقي والعمقي، كما يجب أن نتعلم أن نفخر **بتنوعنا**. لأن في تنوع الثقافات واخـــتلاف الـــديانات، يكمن امتدادنا الروحي، وعلاقتنا الإلهية، لأن الألوهة التي خلقتنا شعوبا وقبائل هي التي حثت في الوصية أن نتعارف، ونتحاب ونتماهى[21].

واللغة أحد المكونات الأساسية للهوية باعتبارها عنصرا حاسما في تحديد الهوية الثقافية، وليست مجرد عنصـــر بسيط ضمن عناصر أخرى، بل تعتبر المظهر الأهم. ومن خلال هذه الخاصية المميزة تصبح عاملا للهويـــة ووســـيلة للتواصل، ولذا لا يمكن فصل هذا المكون المهم عن الهوية. وبهذا المعنى ليست الثقافة إلا هذا المجموع من العناصـــر المتجانسة من الاستجابات المادية والفكرية لشعب من الشعوب وشرط وجوده، للاستفادة من الميراث المشترك، إذ يجب أن نعتقد ونعمل على الاعتقاد بأننا ننتمي إلى مجموعة(...) في كل هوية ثقافية هناك عامل مميز من الاعتقادات.الانتماء إلى شعب، إلى نظام من القيم والأعراف لأننا نؤمن بها[22] وهو منظور تعمل آسيا جبار على ترسيخه.

تفكيك الصورة النمطية للمرأة في التاريخ الإسلامي

ظهرت رواية آسيا جبار "**بعيدا عن المدينة** "[23] في مطلع التسعينات في ظروف خاصـــة عرفتهـــا الجزائـــر، فجاءت بمثابة قراءة ضمنية للأوضاع السياسية للجزائر في هذه الفترة. وبرجوع الكاتبة إلى التاريخ الإسلامي وإعـــادة قراءته، فهي تريد الكشف عن الجذور الأولى للفتنة الكبرى في فجر الإسلام، وما نتج عن ذلك مـــن إهـــدار لـــلأرواح وسفك للدماء.

أما عنوان هذه الرواية، فله دلالته المعبرة عن وجهة نظر الكاتبة: "بعيدا عن المدينة"(المنورة) يوحي أن الكاتبة لا تعتمد في قراءتها على التاريخ الرسمي الذي كتبه المؤرخون المسلمون، وإنما تقوم بإعادة النظر في رواياتهم حول تاريخ المرأة في الإسلام، واضعة إياها موضع تساؤل وشك. اعتمدت في ذلك على ما أورده ابن هشام وطبقات بن سعد وتاريخ الطبري واستنتاجات بعض المستشرقين.

التفتت في قراءتها إلى الكثير من الأحداث المهمة في هذا التاريخ؛ مثل حادثة الإفك وبعض الأحداث الشهيرة بعد وفاة الرسول، وتولي أبي بكر الصديق الخلافة وظهور حركة الردة، ومُدَّعُو النبوة مثل مسيلمة وسجاح. وقامت بطرح بعض الأسئلة المحرجة دون أن تجيب عنها،أو تحدد موقفها منها ، جاعلة القارئ يملأ بعض الفراغات، ويستدرك بعض الحلقات المسكوت عنها.

تشكك الروائية في حقيقة الصورة التي رسمها المؤرخون المسلمون للمرأة، وتعتبر ما أوردوه عنها مجرد تحامل عليها، فلا يذكرونها إلا ذكرا عابرا، مُغمِطين حقها ودورها في صناعة التاريخ، جاعلين منها مجرد متاع للرجل. ولم يستثن من ذلك حتى النساء العظيمات في التاريخ الإسلامي، مثل السيدة فاطمة (ض) التي لا يكاد يذكرها هؤلاء المؤرخون إلا باعتبارها أما للحسن والحسين[24]. ولأجل ذلك تورد موقف الرسول(ص) من علي عندما منعه من ممارسة حق إسلامي يتمثل في "تعدد الزوجات" بسبب خوفه على ابنته من الفتنة واالأذى. كما تذكر موقفها الرافض لقرار أبي بكر، القاضي بحرمانها حقها في الميراث مصداقا للحديث النبوي:"نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة". وترى في رفضها رضي الله عنها لقرار أبي بكر موقفا بطوليا يشرف المرأة وتاريخها، لأنها وقفت في وجه نظام "ذكوري" يحتكر لنفسه حق التفسير والتأويل. وتبين أن هذا الموقف لا ينبع من طمع مادي للسيدة فاطمة، بقدر ما يعود إلى اقتناعها العميق بتطبيق حق إسلامي شرعه الله في كتابه، بغض النظر عن السياق الذي ورد فيه الحديث السابق.. ومن هذا المنطلق تطعن في موضوعية هؤلاء المؤرخين فيما يخص هذه القضية. وتعلل توجههم هذا باعتباره يمثل ذهنية راسخة في المجتمع العربي تتمثل في تحكم النسق الذكوري، الممجد للتوجه الحريمي المهيمن، وهو سبب جعلهم يبتعدون عن ذكر الحقيقة والابتعاد عن المنهج العلمي الموضوعي. وتخلص إلى نتيجة مهمة، حسب رأيها، وهو أن التاريخ الإسلامي في هذه القضية تاريخ مُوجَّه. ومن ثمة فهي لا تأخذ رواياتهم على عواهنها، وإنما تقوم بتفكيكها ووضع علامات استفهام حول نتائجهم.

تحفظات حول أقوال المؤرخين

تتحفظ الروائية على كثير مما يعتبر من المسلَّمات التاريخية، فتحاول إقناع القارئ باحتمالات أخرى أكثر موضوعية وواقعية، ملقية بعض الأسئلة دون أن تجيب عنها، تاركة القارئ يملأ بعض الفراغات ومساحات الصمت. وأبرز مثال على ذلك وقوفها على حادثة بارزة في تاريخ الطبري تتحدث عن ملكة اليمن بعد ارتداد"أسود العنسي" وقضائه على "شهر" حاكم اليمن وزواجه منها، حيث يرجع الطبري فضل هذا الانتصار إلى "فيروز" قائد جيش المسلمين، ويورد حديثا للرسول (ص) يبشر بهذا النصر[25].

وما يلفت انتباه الروائية في هذه الرواية التاريخية، هو ميل المؤرخ إلى ترسيخ المنظور السلبي من خلال تمجيد الدور الذكوري والتركيز على مسيلمة في المشهد،وجعله المحرك الأساسي للأحداث والوقائع، في مقابل التقزيم الواضح لدور المرأة، التي يظهرها في صورة الضحية العاجزة عن أخذ زمام المبادرة والتحكم في مصيرها، حين تستسلم له بهذه السرعة خوفا من تركها[26]. وتحاول طرح بعض الأسئلة عن المؤرخ: لماذا تزوج منها، وكان بإمكانه أن يتخذها سَبيَّة باعتبارها غنيمة حرب، وهو رجل بدوي مازالت البداوة مستحكمة فيه [27].

وفي مقابل ذلك تتصور سيناريو آخر أكثر واقعية، حسب رؤيتها، تؤول به هذا الزواج. إذ ترى أن الملكة هي التي تآمرت عليه للإطاحة به انتقاما منه، وانتصارا لكرامتها المجروحة، وبذلك هيأت الطريق للقائد الإسلامي للقضاء عليه بعد أن خابت فيه آمالها حين اعتقدت أنه نبي مثل محمد[28] بعد أن اكتشفت دجله وادعاءه، وأصبحت تشعر بالحقد اتجاهه كل يوم[29]

ونلاحظ هنا أن هدف الكاتبة الأول هو التشكيك في صحة ادعاء المؤرخ، وكذلك محاولة رسم صورة مخالفة لما قدمه مستعينة بالتخييل الأدبي لكشف المستور والمسكوت عنه، خارج تصور النسق الذكوري المهيمن. لتفسح المجال واسعا أمام خيالها: ترسم صورة مختلفة لهذه الملكة ودورها، بعيدة عن الصورة النمطية؛ السَّبية الخانعة الخاضعة، فتجعل منها امرأة كاملة القوة والإرادة تختار مصيرها بنفسها: ولذا فمشروع زواجها من "الأسود العنسي"، كان ضمن مخططها من الوهلة الأولى، لأن شخصيته استهوتها، ورأت فيها استجابة لتلبية مطامحها وإرضاء غرورها في الوصول إلى الزواج من رجل يشبه شخصية النبي محمد(ص)[30]، حسب اعتقادها، بعد أن تعذر عليها الوصول إلى هذا الأخير بالطريقة التي تريدها. وهنا تحاول التأكيد على دور هذه المرأة في صناعة هذه الواقعة التاريخية. في حين ترى أن الطبري يصر على تفسير هزيمة الأسود بأسباب ميتافيزيقة، ويُغمِط دور الملكة الفعال في صناعة التاريخ، بإظهارها بهذا الوجه السلبي.

المُغيَّب والمسكوت عنه في حياة "سجاح"

ولا تختلف صورة سجاح في منظور آسيا جبار عن سابقتها التي أوردها الطبري في تاريخه باعتبارها امرأة ادعت النبوة في زمن الردة في خلافة أبي بكر الصديق. اجتمع حولها الكثير من بطون العرب ودعمتها قبائل أخرى، ثم تحالفت مع مالك بن نويرة لمقاتلة أبي بكر. ولما سمعت بأمر مسيلمة وقوته، تحدته بغزو اليمامة فهابها وحاول استمالتها وأرسل إليها الهدايا ليستأمنها على نفسه حتى يأتيها[31] ولما ذهب إليها قدم لها مهرا يتمثل في إسقاط صلاتي العشاء والفجر عن قومها،ثم تزوجها وبقي عندها ثلاثة أيام. وهنا تلاحظ الكاتبة أن المؤرخ لم يذكر أية تفاصيل عن دور هذه المرأة القوية في هذه الحادثة التاريخية. وهو ما تعتبره إغفالا واضحا من هذا المؤرخ لدور هذه المرأة ومقاومتها، مكتفيا بإظهارها في صورة الضحية الخاضعة التابعة.

وبذلك ترى أن الكتابة بهذه الصورة، ليست إلا امتدادا وترسيخا للمنظور الاجتماعي الممجد للنظام الذكوري، الذي يبقى هو المحرك الأساسي للوقائع التاريخية، بينما تبقى المرأة مجرد خلفية مشهدية في الأحداث ترسخ غطرسة الرجل وغروره، على حساب الحقائق التاريخية والكتابة الموضوعية. وتوضح هذا بإشارتها في إغفال الكثير من التفاصيل حول دور سجاح، والاكتفاء بدور مسيلمة، مصورا إياها مجرد أنثى بسيطة خاضعة لنزوات مسيلمة، دون أن يذكر شيئا عن مقاومتها أو مصيرها النهائي ما عدا ذكر حُسن إسلامها وبقائها في بني تغلب ووفودها عام الجماعة على معاوية [32]وهنا تحاول الروائية الإشارة إلى بعض ما تعتبره الحلقات المغيبة في هذا التاريخ المستند إلى أفكار مستمدة من النسق الذكوري. وتتساءل: إذا كانت سجاح بمثل هذه الصورة الباهتة السلبية،كيف تمكنت من جمع كل هذه القوة، وإنشاء هذه الأحلاف، واستطاعت قهر مسيلمة، فيأتيها خاضعا طالبا ودها ؟حسب رواية الطبري. وترى أن ما أورده هذا المؤرخ حول مصير هذه الشخصية غير مقنع ، بل متناقض مع سياق روايته التاريخية، وما أورده عن قوتها وجمالها وبلاغتها. وترى في هذا ابتعادا عن الموضوعية وتشويها للتاريخ الحقيقي، خدمة لذهنية ضيقة تحاول إخفاء الوجه المشرق للمرأة ودورها الفعال في صناعة التاريخ.

ترفض جبار هذا الطرح جملة وتفصيلا، وتأبى أن تقدم صورة سجاح بهذه الصورة الشائهة الهزيلة. خاصة وأنها امرأة فتنت العرب بجمالها وبلاغتها، فكيف بها أن تخضع لمسيلمة لمجرد كونه "فتى بهي الطلعة" حسب تعبير

الطبري، وكان بإمكانها أن تختار من هو أكثر جمالا وعزا من مسيلمة إرضاء لغرورها الأنثوي، وتبقى كل هذه المدة دون زواج[33]،لتستسلم له في نهاية المطاف، و وترضى لنفسها بهذا المصير المهين. ولأجل ذلك ترى في هذه الرواية تناقضا مع تفاصيل السياق الذي أورده سابقا.

و تلتمس الروائية علة أخرى لقبول سجاح مسيلمةَ، غير تلك التي أوردها الطبري، وتتخيل مشهدا آخر أكثر واقعية، أقرب إلى تفاصيل الطبري الأولى وشخصية سجاح: بعد أن عجزت عن إقناع محمد (ص) بأنها ندا له، وليست مجرد امرأة من الحريم تريد مبايعته. رأت في صورة مسيلمة المعادل الموضوعي لهذا الطموح، فقبلت به لأنه نبي فُتن بها وخضع لها، وهو ما جسد لها طموحها. وهنا تحاول الروائية الكشف عن الحلقة التي غيبها المؤرخ الإسلامي،حسب منظورها، وهو ضعف مسيلمة أمام قوة سجاح وفتنتها وقوة قريحتها الشعرية[34]، عكس ما ورد في تاريخ الطبري.

ولعل هذه الأمثلة التي أوردناها تستطيع أن تلخص لنا منظور آسيا جبار لموضوعتين مهمتين في أدبها، وهما الهوية والمرأة، للتعبير عن الحرية والتنديد بالوصاية التقليدية في المجتمع الذكوري، لإثبات الهوية الحقيقية. إذ لا يمكن الشعور بالهوية دون حرية، ولا يمكن الشعور بالهوية دون الإحساس بالهوية. وكل ابتعاد عن هذا الإطار يعتبر استلابا.

وبهذه الرؤية النقدية التحليلية التفكيكية، تحاول جبار أن تقدم صورة المرأة ودورها وهويتها الحقيقية التي تم تغييبها من طرف المؤرخين بسبب النسق الثقافي المستحكم، القائم على ترسيخ ثقافة التهميش وتعطيل الاجتهاد والتأويل، والاستماع لوجهة نظر واحدة وفرضها بقوة من طرف قوة قاهرة ومُوجَّهة. ومن ثمة فهي تعتمد على المغيب والمهمش والمسكوت عنه في هذا التاريخ وتجعل منه النواة الحقيقية لمنظورها السردي وعالمها التخييلي الذي يحدد رؤيتها للعالم.

ومن هنا، ندرك أن آسيا جبار، ليست بصدد كتابة تاريخ ، بقدر ما تحاول أن تقدم وجهة نظرها في مسألة من أشد المسائل تعقيدا، في إطار تخييلي إبداعي فني، موظفة ثقافتها الحداثية وقراءتها التفكيكية، لترميم بعض الحلقات المغيبة والمهمشة، والجهر بالمحظور والمسكوت عنه، في وجه المنظومة الاجتماعية والمؤسساتية والمذهبية المتمكنة، بإثارة جدلية الثابت والمتحول، على اعتبار أن الحقائق المطلقة غير موجودة، وأن التحول هو الأصل في التاريخ الإنساني، معتمدة في ذلك على التخييل الإبداعي والحدس الفني لإثارة الأسئلة المحرجة لزعزعة ما تراه أفكارا متزمتة.

الهوامش والإحالات

[1] - Roland Barthes : Leçon inaugurale de la chaire de sémiologie littéraire au Collège de France, prononcée le 7 janvier 1977. Paris Seuil. Points essais, 1989, p. 15
[2] -Assia Djebar (1997), Les Alouettes naïves, Paris ,Actes Sud (1967)
[3] - Assia Djebar (1980) Femmes d'Alger dans leur appartement,Paris, Des Femmes(1997).
[4] -Assia Djebar(1985) L'amour,la fantasia, Paris, Albin Michel (1995)
[5] - Vaste est la prison(1995)
[6] - http://www.oudnad.net/spip.php?article560#sthash.WdU2bcH6.dpuf

[7] – المرجع نفسه.

[8] – لغة التيفيناغ أو ما يسمى: Libyco- berbère

[9] - L'amour,la fantasia,Op.cit, p. 203
[10] - Ibid, p.204
[11] - Ibid, pp. 43-44
[12] - Ibid, p. 240.
[13] - Assia Djebar,(1995) Vaste est la prison, Paris, Albin Michel, p.192
[14]- Ibid, p. 347
[15] - L'amour,la fantasia, Op.cit, p.204

[16] – عبده الوازن، الهوية والانتماء، أمين معلوف العابر للتخوم، كتاب دبي الثقافية، أبريل 2012، ص.22.

[17] - Amin Maalouf, identités meurtrières, Paris, Grasset 1998.p.114.115.

[18] – أمين معلوف أديب لبناني يكتب باللغة الفرنسية، له حضور قوي في المشهد الإبداعي العالمي، وهو عضو في الأكاديمية الفرنسية إلى جانب آسيا جبار .

[19] – عبده الوازن، أمين معلوف العابر للتخوم،مرجع سابق،ص.22

[20] – إبراهيم الكوني، روائي ليبي، معروف على المستوى العالمي، ينادي بالاعتراف بحضارة الطوارق، يكتب باللغة العربية، ــ ويعتبر الإسلام والعروبة بعدا مهما في الهوية المغاربية.ينادي بالعروبة الثقافية ويندد بالعروبة العرقية.

[21] – إبراهيم الكوني، فرسان الأحلام القتيلة، ص.84

[22] - Albert Memmi, Le buveur et l’amoureux, Paris, Aléa, Essai, 1998, pp202/203.
[23] -Assia Djebar, Loin de Médine, édition Albin Michel, 1991
[24] - Ibid, p.61 .

[25]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري،تاريخ الرسل والملوك .تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ج3، ط2، د ت. ص236.

[26] - Loin de Médine. Op.cit, p. 20.
[27] -Ibid, p.20.
[28] - Ibid, p.21.
[29] - Ibid , p.21

[30] – بسبب ادعائه النبوة.

[31] – ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق ،ج3، ص 267–271)

[32] – ينظر المرجع السابق، ص 275.

[33] - Loin de Médine, Op.cit.p.47.
[34] - Ibid, p.47.